

المشرق

اكتشاف اليسوعيين للنيل الازرق

نبذة تاريخية للاب موريس شان اليسوعي مدرس اللغة التبشيرية في المكتب الشرقي

كان دخول اليسوعيين الى الحبشة اولاً سنة ١٥٥٤ في عهد النجاشي قلاوديوس (١٥٤٠-١٥٥٧). وما لبثوا بعد زمن قليل ان اكتسبوا ثقة الاهلين بغيرتهم وتفانيهم وانعشروا فيهم روح الايمان المسيحي كما قبلوه من موارد الصافية في أيام القديس اثناسيوس - وكان الملك يجلبهم ويصفي الى رايهم وكذلك الشعب كان يتقاطر الى استماع تعاليمهم ويكرمهم كاصفياء الله . لكن الاكليروس القديم خاف على سطوته وتصدى لما اكتسبهم واضر لهم السوء . على ان هذه المقاصد الحبيثة لم تأت بفعالها الا بعد زمن في عهد الملك فاسيلادا فلما كانت السنة ١٦٣٢ جاء الجيش « ابرنا » (اي اسقف) جديد من الاسكندرية وكان آلي على نفسه ان يخرج المرسلين من بلاد النجاشي فنفتح في قلوب الحبشة ما كان في قلبه من البغض وتغيب المرسلين مع المرتدين الى الكنيسة الرومانية حتى استأجل شأنهم . واستشهد في تلك الاثناء كثيرون من اليسوعيين وغيرهم وانقلت ابواب الحبشة في وجه دعاة الدين الكاثوليكي . وكان اليسوعيون مدة اقامتهم في الحبشة مع قصر الزمان تولوا اعمالاً مشكورة لا يزال العلماء يذكرنها باثناء الطيب . فمن ذلك عدة تأليف صنعوها في تعريف تلك الجهات النازحة وآدابها واحوالها السياسية كما كان دأبهم في كل البلاد التي يقيمون عليها للتبشير فيخدمون العلم والدين على سواء . وبما يستحق الذكر من هذه المصنفات تاريخ الحبشة للاب پايز (١٥٦٤-١٦٢٢) وثلاث رسائل مطرولة

للأب بارادو (١٥٧٢-١٦٣٣) تتضمّن الواحدة تاريخ مدينة عدنّ . ومنها تاريخ واسع للأب دي ألتيدا (١٥٨٠-١٦٤٦) وكتاب بشة الجيش للأب النفس منداس (١٥٧٩-١٦٥٦) كتبها في اللغة الحبشية . وقد اخذت ايدي الضياع كثيراً من هذه الآثار بقي منها النذر القليل كمتخصر تاريخ الاب دي أليدا للأب تيلاس كنبه سنة ١٦٦٠ وتاريخ الاب منداس الذي طبع في اللاتينية سنة ١٦٦٢ . ويوجد قسم آخر ليس باليسير متروكاً في زوايا المكاتب لا يزال ينتظر رجلاً من ذوي المهنة ليستخرجه من دفتاته كما فعل حديثاً السيوكنتي روسيني واستيفاس بيريرا اللذان نشرنا بعض شذور من هذه الكنوز الادبية ١)

امّا سبب اهمال تلك الآثار الثمينة فانما كان قلة المتعلمين لدرس اللغة الحبشية لأنّ بلاد الحبشة كانت تُعدّ في الاجيال السالفة في جملة الاقطار المهجّية التي ليس من وراء معرفتها فائدة تُذكر . فانما دخل اليسوعيون انصرفت اليها الافكار واخذ العلماء في درس آثارها لكنّ هذه المهنة ما فتئت ان كبا زندها وتعلّص ظلّها بعد بقي اليسوعيين من مملكة النجاشيين ووضحت الدروس الحبشية نياً منسياً الى ان توجهت ثانية انتظار اوربة الى تلك البلاد بعد ان عاد اليها ثانية في اواسط القرن السابق المرسلون الكبرشيون واللعازيون وطاقها بعض ذوي المدارك السامية كالسيو دي أبادي وغيره . فوجت الدروس الحبشية الى زهوها ودخلت في جملة اللغات المدرّسة في الكليات الاوربية

ومنّ اشتهر وهذه المدة الاخيرة بنشوراتهم الحبشية حضرة الاب بكاردي اليسوعي الروماني فانه باشر في طبع مجموع واسع يشمل عدّة مجلّدات يضمّنها كثيراً من تأليف الآباء المرسلين الدينية والادبية والعلمية التي تمكّن من اكتشافها في خزائن الرهبانية اليسوعية ومكاتب الدول وها هوذا قد انجز من ذلك مجلّدين اقبل عليهما العلماء برغبة عظيمة ووجدوا فيها دليلاً قاطعاً على مهنة المرسلين القدماء الذين رفعوا حيثاً حلّوا لواء العلم والدين لم يفصلوهما البتة وهما كفرنسي رهان في حلبة المدينة

(١) وقد نشر حضرة الاب اخنون رباط فصلاً من تاريخ الاب أليدا في استهاد الاب

المكرم ابراهيم برجس الحلبي الماروني (Documents pour servir à l'histoire du
Christinnisme en Orient T. I.)

*

وقد اطلعنا نحن ايضاً على هذه الآثار الحديثة الطبع فتحققنا ان للمرسلين فضلاً
آخر كان البعض انكروه عليهم وهو سببهم الى اكتشاف النيل الازرق.
وكان القدماء منذ قرون عديدة يبحثون عن منشأ النيل وعن مخرج ينابيعه وهذا
الامر لم ينجل تماماً الا في العصر الاخير باكتشاف اصل النيل المعروف بالايض من بحيرتي
فكتوريا نياترا والبار عند خط الاستواء. وفي هذا النيل الايض ينصب قرب الخرطوم
النيل المعروف بالازرق المدعو ببحر الغزال الذي كان اصله مجهولاً فتوفق الى اكتشافه
احد الآباء اليسوعيين وهو الاب پايز (Paez) الذي أرسل الى الحبشة ليدعو اهله الى
طاعة الكرسي الرسولي فطاف تلك الاصقاع ورد كثيرين الى الحضيرة البطرسية وكان
في اثنا تجواله يصف الجهات التي يعاينها الى ان بلغه ذكر نهر النيل بواسطة قبائل
تلك البلاد فاحب ان يرسل اليه واتم مقصوده فعلاً فوصف ما رأى في كتاب بقي
حتى الآن بين دفتان المكاتب فآظهره الى النور حضرة الاب بكاري. وبشر هذا
الاثر النفيس حلّ مشكل تاريخي كان زمناً طويلاً موضوع البحث والجدال بين العلماء
كاسترى

كانت رحلة الاب پايز من الحبشة الى ينايبع النيل في اوائل القرن السابع عشر.
فبعد وفاته بنحو ١٥٠ سنة قدم بلاد النجاشي احد اعيان الانكليز اسمه جيمس بروس
(J. Bruce) تجسّم السفر الى الحبشة سنة ١٧٦٨ فراراً من احزان كدّرت صفاء
حياته في موطنه فتوغّل في بلاد الحبش وصعد الجادها ولم ينكفئ راجعاً حتى وصل
الى ينايبع النيل الازرق. فلثما عاد الى مقط رأسه سنة ١٧٧٢ جعل يستر
اخبار رحلته ونظم ما صنع بذلك لولا انه خلط الثّ والسّمين واطاف الى
لشياء صحيحة اموراً غريبة لا سند لها غير مخيلته. وما هو اخطر من ذلك انه نقل
عن تآليف اليسوعيين الذين سبقوه لشيء كثيرة سكت عن اصحابها ونسبها الى
نفسه. ومما ادعاه انه هو اول من توفّق الى اكتشاف النيل الازرق وذلك في كتابه
المعنون «رحلتي الى اكتشاف ينايبع النيل» الذي طبعه في سكوتيا سنة ١٧٨٠
وانكر ان اليسوعي پايز بلغ الى معرفته زاعماً ان ما ذكره في هذا الصدد الاب اثناس
كيرخر (Aedipus Aegyptiacus, I, p. 57, ed. Rome, 1652) انما هو

محض اختلاق. وأدعى ان وصف الاب پايز الذي كان إختصره الاب كيرخر ليس
بمدقق ومن ثم لا يستحق الاعتبار. على ان الحوى الذي يعنى البحيرة خدع هذه المرة
ايضا عقل الرحالة بروس ولما دافع عن صحة اكتشافه لم يرو من ملخص الاب كيرخر
الأ بعض الاسطر لينقض معانيها

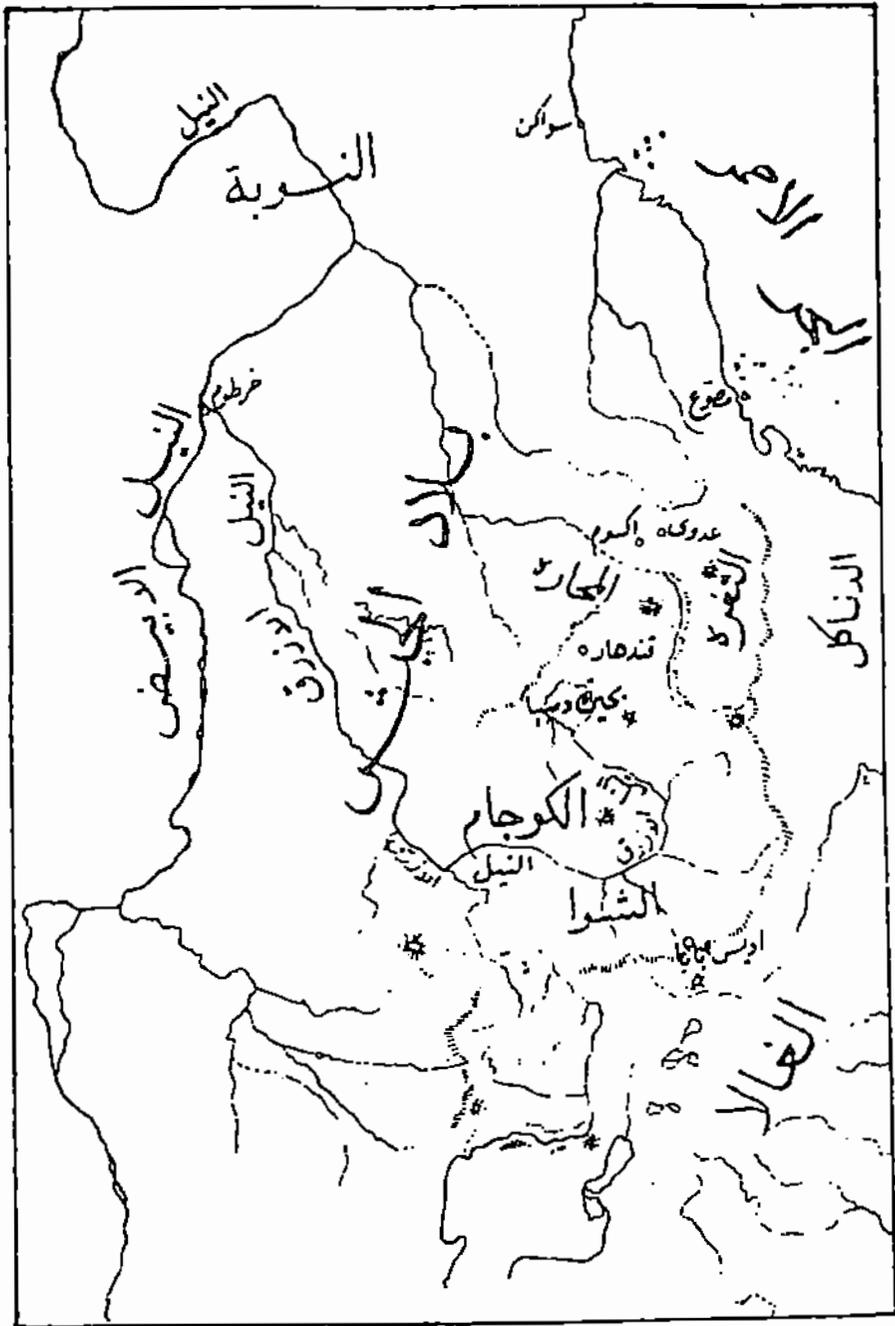
وها نحن رعاية للحق وريانا لفضل المرسلين ثبت هنا الوصف الذي كتبه الاب
پايز قبل بروس باكثر من ١٥٠ عاماً فيتحقق القراء. عدم استقامة الرحالة الانكليزي
وصدق الاب كيرخر الذي لم ينسب الى احد رهبان جمعته دعوى كاذبة. فضلاً عن
ان هذا الوصف يتضمن فوائد عديدة تكذب مطالعتها معرفة تقريباً غاية في الضبط عن
الاصل البرتغالي وهو النصل السادس والعشرون من تاريخ الحبش للاب پايز وقد اضفنا
اليه قسماً من الخريطة التي اثبتها الاب دي أليدا سنة ١٦٦٢ تقرأ عن الاب پايز
عينه. وقابلنا بينها وبين خريطة الحبشة كما تُعرف اليوم ليستدل القارئ بالمقابلة على
صدق اولئك المرسلين القدماء. الذين كانوا ارفع مقاماً واشرف نقاً من ان ينسبوا
لنفوسهم مدعىات فارغة

الفصل السادس والعشرون (من تاريخ الأب پايز اليسوعي)

في النيل ونيبوع

« واذ كنا قد مجئنا عن خصب الاراضي التي يملك عليها الكاهن يوحنا » (١)
فلا بد ان نلحق بذلك فصلاً عن اخص الانهار والبحيرات التي بها تركو وتخصب تلك
الاشحاء . وارل ما يتبادر الى ذهننا انما هو ذلك النهر الشهير الضافي اعنى به النيل
الذي دعاه الكتبة الاقدمون والمحدثون استناداً الى سفر التكوين في فصله الثاني باسم
جيحون . قال الله (تك ٢ : ١٣) : « واسم النهر الثاني جيحون وهو المحيط بجميع ارض
الحبشة » . اما اهل هذه البلاد فيدعونه اباوي (Abaoui) اي النهر الكبير . ونبعه
في مملكة قوجام في بلاد صحالا التي يعرف اهلها باسم انرس وهم نصارى الا انه قد
غلبت عليهم خرافات وثنية متعددة لجاورتهم لبعض القبائل من جنسهم لا تزال
تدين بعبادة الاصنام وهي كثيرة العدد

(١) هكذا كان الاوربيون يدعون ملوك الحبشة سابقاً وقد ذهبوا في تفسيره مذاهب شتى



رسم خارطة المبتنة كما تُعرف اليوم

« وموقع هذا النبع تقريباً غربي هذه المملكة (casi ao poente) عند رأس وادٍ مُنْع كَأَنَّهُ السهل . وقد تمكَّنتُ من مشاهدة هذا الينوع في ٢١ نيسان من السنة ١٦١٨ . وكان أوَّل ما لاح لي حوضين مستديرين يبلغ عرضهما اربعة اشبار قلنا عاينت هذا المنظر اصابني منه فرحٌ عظيم اذ أُتيح لي بان لشاهد ما تاق الى رؤيته كبار الرجال والقائمين ككورش وكيبس واسكندر ذي القرنين ويراوس قيصر وما . هذا الينوع شديد الصفاء خفيف على المعدة كما خلقتُ وقد شربتُ منه . الا ان الماء لا تسيح على وجه الارض في قنّة الجبل لكنّها تنجس في لحنه . وامرتُ احد رفقتي بان يركّز رحلي في احد الحوضين وهو القريب من الطرف حيث ينبع الماء فادخلته الى طول احد عشر شبراً فاشمرتُ بجذور الشجر التي في قعره كَأَنَّهُا تسدُّ ميل الماء .

« ويوجد فوهة أخرى ينبع منها الماء وهي دون الينوع السابق الى الشرق على مسافة نحو رمية حجر منه (abaixo pera oriente, como de hum tiro de pedra do primo) وقد سبناها برميح ذي اثني عشر شبراً فلم يمكننا بلوغ قعرها . فقد احد البرتغاليين رحلين بلغ طولها عشرين شبراً فلم يمكنه ان يدرك غور المياه والوطنيون يزعمون ان غورها لا يسبر وقد اخبرونا انهم اذا مشوا حول هذه المغاور كان لشيئهم جلبة يُسمع لها صدى في كل تلك الانحاء فيستنتجون من ذلك ان هناك كهوفاً تتدفق منها المياه وان فوق المياه جذوراً من الشجر مشبكة بعضها يخالطها شي . من القرية وذلك ما يسمع بالشي فوقها . وقد أكد لي كثيرون ومن جملتهم النجاشي نفسه الذي تزل في ذلك المكان بسكره ان في هذه السنة لا يشمر الشاة بحركة مشيهم كما كان سابقاً وذلك لتملأ المياه والجذب الذي حصل في مدة الصيف الاخير . لما كان السنين السابقة فما كانوا يجلون في هذا المكان الا بكل حرص . وكانوا اذا مشوا احسوا بان الارض تُخسف تحتهم وتبيط بهم الى عمق ثمانية او عشرة اقدام . وكانوا يرون الماء يتنجس على شبه النوافر فيتصاعد الى الجبل ثم يهبط . وكان المسافة التي تشغلها هذه الينابيع مجرّة قديمة لا تبلغ طرفها رمية حجر الا اذا اتقي بالقتلاع

« واذا صعدت قريباً من النبع الى اعالي الجبل ألتيت اوتلاً بعض المساكن واذا رقيت الى علو نصف ميل من الينوع التربي تصل الى جبل يدعوه اهل تلك الناحية

غويكس (Guix) وقتته غاية في العلو ينخدع بها البصر فيظنّها لا تتجاوز رمي البندقية وكانت قبائل تلك البلاد تصعد الى مشارفها فتقدم عليها عدداً من ذبائح البقر « وفي ما فرط من الزمان كان يأتي هذه الجهات احد السخرة فيذبح بقرة يرمي برأسها في غمر المياه ثم يصعد الى اعالي الجبل ويذبح ما يأتيه به الاهلون من البقر العديدة فيقدمها كقدمة حافة . ثم كان يجعل على جسده شحم الذبائح فيدخل في مرجل عظيم نصب فوق حطب منضود فيأمر بإيقاده وكان يبقى في المرجل الى ان ينطفئ الحطب ويذوب الشحم على جسده . وكان في بعض الاحيان يدخل في المرجل بعد ان تشتعل النار وكان سحره هذا يؤثر في الحضور فيكرمونه كولي عظيم ولا يطلب منهم شيئاً الاثالة

« وفي السهول المنبسطة تحت هذا الجبل تكثر مزارع القمح والشعير الى قرب الينابيع . أما جهة الجنوب الشرقي والشمال فتري عند جوار الينابيع الدغل والاشواك تمتد الى مسافة بعيدة وكأنها اجراج الطرفاء . وهي تنتهي الى مزدردعات نامية على مدى نحو ميل . وهذا المكان على مرتفع لا يقدم اليه احد الأصعوداً ويمكن ان يوتق اليه من اي جانب كان لكن الطريق اصعب وأوعر من الشرق والغرب اما الطريق من الشمال الى الجنوب فهذه المرتقى . ومن جهة الجنوب على بعد نحو ميل من الينابيع فرجة واد عميق وعريض مما يجري فيه نهر وسط يسيل الى النيل ويصب فيه لعل هذا النهر صادر من الينابيع نفسها

« اما مجرى الماء الذي يسيل من الحوض المستدير الشكل فانه يسيل الى جهة الشرق الى مبالغ رمية بندقية حيث يرى ثانية فيعرف بدلائل النبات الذي يجره في سيره ومن هيئة انعطاف الجبل . ثم يدور الى جهة الشمال ويقطع مسافة ربع ميل ثم يعود الى وجه الارض متدفقاً بين الحجارة . وهو هناك على غلظ جسم الانسان . واذا انحدر من هناك قليلاً انصببت فيه مياه جدولين آخرين من الشرق ثم تأتيه السواعد من كل الانحاء حتى اذا صار على بعد نحو يوم واحد جرى فيه مسيل كبير يدعى « جاما » ثم يسير بتوريبات ومنعرجات طويلة فيسيل بعد مسافة ٢٠ او ٢٥ ميلاً الى جهة الغرب وتراه هناك نهراً زائخاً ثم يدور منعطفاً الى الشمال بينما تأتيه السواعد من كل صوب

حتى اذا بلغ النيل الخامس والثلاثين دخل في بحيرة واسعة تدعى « باد » تنقسم بين مملكتي قوجام ودامبان

« والى قد مشيتُ على ضفة هذا النهر وتبعته الى دخوله في البحيرة المذكورة ثم جريت على شاطئ البحيرة على مسافة طويلة وكنت ارقب جري النهر ابي النيل في وسط البحيرة من قرب عالٍ فظهر لي ان النيل يخرجها على عرض نحو نصف ميل . واذ كانت البحيرة هادية صقيلةً امكنتني ان اميز مجرى المياه . وكان النهر يُزجي اعشاباً شتى يتقلها في سيره بلين . لما التابعت والتبن وغير ذلك مما كان على البحيرة في جانبي مجرى النهر فيكاد لا يتحرك البتة . لكنني لم ابلغ الى المكان الذي يخرج فيه النهر من البحيرة . ولعل المسافة بين مدخل النهر الى البحيرة ومخرجه منها نحو ستة اميال

« والنيل عند خروجه من بحيرة باد اغزر منه عند انصابه فيها وهو مع كثرة مياهه يتسع اتساعاً بالغاً حتى ان المشاة في فصل الصيف يمكنهم قطعته . واذ اوما خرج من البحيرة مال الى الجنوب ميلاً خفيفاً ثم يسير خمسة اميال فيبلغ بلاد « علاقة » فيبط من جنادل علوها اربع عشرة ذراعاً . اما العرض بين الضفتين فيبلغ رمية مقلاع . وفي فصل الشتاء عند زيادة المياه يحصل لسقوطها في الجنادل شبه التمامة ترى من مسافة بعيدة . وقد عاينت انا ذاتي هذه التمامة غير مرة . وبعد هذه الشلالة بمسافة قليلة تنحصر المياه في مضيق يسهل مدجس من الحشب بين جانبيه وهكذا يقطع النجاشي مع كل عسكره . وهناك تنتهي مملكة بدكام (ويقال ايضاً « بدكام مدر » اي ارض بدكام)

« ثم يجري النيل في مملكة قوجام على طول بلاد « احرة بلوكا » وشوا ودامات ولا يزال يتبع حدود قوجام مستديراً حتى يصير بازا . « گار صنصا » وهو هناك قريب جداً من يناير التي خرج منها حتى انه يمكن الوصول اليها بمسيرة يوم واحد . وقد سألت النجاشي « سلطان صفد » واخاه « سيلاخستوس » كم ينبغي من المراحل لو اردت السير على النهر تابماً كل متطافه فاخذنا يمدان المراحل مع بعض وجوه الدولة فكان حصول الحساب ان ذلك يتتضي ٢٩ يوماً

« والنيل بعد بلوخه « گار صنصا » يدور حول بلاد قوجام ويسري الى مملكة فزكولو واومباريا التي يسكنها الزوج الذين قهرهم راس سيلاخستوس سنة ١٦١٣ .

وتلك البلاد واسعة جداً وهم يجهلون تخومها حتى انهم يدعونها باسم « ايز علم » اي الدنيا الجديدة . ومن ورائها ليس سلطة للنجاشي وهم لا يعلون شيئاً من امور اهلها لكنهم يقولون ان النيل يجري في بلاد الكنثار ومنها يسيل الى مصر » انتهى
هذا هو الفصل العجيب الذي فضل فيه الاب بايز ما عرفة حق المعرفة عن النيل الازرق وكلامه لا يفتي شكاً لاستريب . والسلام

النتائج التاريخية

من درس اعلام الاماكن اللبنانية

لاب معزى لانس البسوي مدرس الجغرافية والتاريخ في المكتب الشرقي (تنسنة)

وفي بطران من قضاء الكورة اثار عديدة من قبور واحواض كبيرة كلها منحوتة بالصخر قد وجدنا بينها اخزية تدعى اشونيت رُجِح كونها اقتاض هيكل اشون الاله الفيثي (١) الذي ينطبق على الاله اسكولاب اله الطب عند اليونان . وكان التصاري القديمة . ارادوا تقديس ذلك المكان فاقاموا هناك معبداً باسم القديسة اشوني اضحي اليوم خراباً والاهل يكرمونه وقد اعتادت النساء اللواتي يشعرن بألم في الصدر ان يمسحن موضع الوجع بماء مصبوب على حجر من حجارة المبد القديم . واشموني عند الشرقيين ام السبعة الغية الشهداء المذكورين في سفر المكابيين لكن الكتاب المقدس لا يذكرها اسماً ولعل الشرقيين اشتقوا اسمها اشوني من العبرانية תשונה اي الثامنة لانها قتلت بعد اولادها السبعة

*

قد ابنا غير مرة ان لبنان يمتاز بنباتاته الزاخرة وغياباته المتنعة . اما اليوم فن يسهح الطرف في ذرى هذا الجبل ويراها اجرد في اكثر اماكنه قليل الاحراج والاشجار نسب لنا التحسن والمبالغة وارتاب بصدق مارونيا من الادلة القديسة . غير ان تسمية الاماكن تشهد بكثرة الاشجار والنبات في لبنان قديماً . ومن ذلك المساكن المسماة « غابة »